محاضرة بعنوان

"الحركة المهدية في السودان: ثورة دينية وسياسية (1881–1898)"

اعداد

م.د. حاتم احمد عويد

جامعة الموصل / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم التاريخ

المقدمة:

تُعد الحركة المهدية من أبرز الثورات الدينية والسياسية في تاريخ السودان الحديث، إذ انطلقت عام 1881 بقيادة محمد أحمد المهدي الذي أعلن نفسه "المهدي المنتظر"، مستندًا إلى فكرة التجديد الديني ومقاومة الاستعمار. وقد تحولت هذه الدعوة سريعًا إلى حركة شعبية واسعة قلبت موازين القوى في المنطقة، وأثرت بعمق في مسار السودان السياسي والاجتماعي.

أولا: الخلفية التاريخية والفكرية

عاش السودان في ظل الحكم التركي–المصري منذ عام 1821 حين قاد محمد علي باشا حملته لضم البلاد إلى سيطرته. وقد اتسم هذا الحكم بالقسوة والصرامة الإدارية، إذ فرضت سلطة مركزية غريبة عن البنية التقليدية للسودانيين، وتدخلت في شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية. اتسمت الإدارة التركية–المصرية بالاعتماد على الولاة الذين لم يراعوا كثيرًا خصوصية البلاد وتقاليدها، وركزوا على جمع الضرائب وتأمين مصالح المركز في القاهرة أكثر من خدمة المجتمع السوداني نفسه. وكان ذلك يثير شعورًا عامًا بالاغتراب لدى السودانيين تجاه السلطة الحاكمة.

على الصعيد الاقتصادي، فُرضت على السكان نظم ضرائب مرهقة شملت الأرض والمحاصيل والرؤوس الحيوانية، حتى غدت عبئًا كبيرًا على الفلاحين والرعاة. وقد أدت هذه السياسات الجائرة إلى تراجع الإنتاج الزراعي، وتزايد حالات الهروب من القرى، وانتشار الفقر في الريف. كما اعتمد الحكم التركي–المصري على نظام السخرة في شق الطرق وحفر القنوات ونقل البضائع، وهو ما عمّق النقمة الشعبية. إضافة إلى ذلك، كان الاهتمام موجّهًا إلى استغلال الموارد المحلية كالذهب والصمغ العربي وريش النعام والعاج، لتصديرها إلى الخارج دون أن ينعكس ذلك على تحسين أوضاع الأهالي.

أما من الناحية الاجتماعية والفكرية، فقد ساهمت هذه السياسات في خلق حالة واسعة من التذمر الشعبي والاحتقان العام. وجد الناس في الطرق الصوفية، التي كانت منتشرة بكثافة في المجتمع السوداني، ملاذًا روحيًا ومتنفسًا اجتماعيًا أمام عسف الإدارة وتدهور الأوضاع. فقد لعبت الطرق القادرية، والتيجانية، والختمية دورًا مهمًا في حفظ التماسك الاجتماعي، كما وفرت خطابًا دينيًا إصلاحيًا يذكّر الناس بقيم العدل والمساواة وضرورة مقاومة الظلم. هذه البيئة الدينية المفعمة بالرموز الروحية والتقاليد الصوفية ساعدت على تهيئة المجتمع لتقبل أي دعوة تحمل صبغة إصلاحية أو مهدوية، خاصة مع تصاعد الاعتقاد بقدوم "المهدي المنتظر" كمنقذ للأمة.

تضافرت هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لتخلق مناخًا ثوريًا عامًا، وجعلت المجتمع السوداني مهيأً لظهور قيادة جديدة تتبنى فكرة الخلاص والتحرر. وفي هذا السياق برز محمد أحمد المهدي الذي استطاع أن يستثمر حالة السخط الشعبي ويحولها إلى مشروع ثوري حمل شعار الإصلاح الديني ومقاومة الاستعمار.

ثانيا: ظهور المهدي ودعوته

ولد محمد أحمد بن عبد الله عام 1844 في جزيرة لبب بمنطقة دنقلا شمال السودان، ونشأ في أسرة متواضعة ارتبطت بالعمل اليدوي وصناعة القوارب. منذ صغره أظهر ميلًا شديدًا للعلوم الدينية، فالتحق بالكتاتيب لحفظ القرآن الكريم، ثم تابع دراسته في الفقه والحديث والتصوف. وقد تأثر بشكل خاص بالطرق الصوفية المنتشرة في السودان، خاصة الطريقة السمانية التي انخرط فيها وأخذ أورادها وسلوكها الروحي. هذا الانغماس العميق في التصوف أكسبه مكانة روحية لدى أتباعه، إذ كان يُعرف بالزهد والورع والابتعاد عن مظاهر الترف، الأمر الذي عزز صورته كداعية إصلاح ديني وصاحب كرامات في نظر المجتمع المحلي.

في ظل أوضاع السودان المتدهورة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وجد محمد أحمد الفرصة مواتية لطرح دعوته الإصلاحية ذات الطابع الديني. وفي عام 1881، أعلن نفسه "المهدي المنتظر" في جزيرة أبا الواقعة على النيل الأبيض، حيث اجتمع حوله مريدون وأتباع متأثرون بخطابه الديني الصوفي. مثّل هذا الإعلان نقطة تحول فارقة، فقد انتقل من كونه شيخًا صوفيًا إلى قائد ديني–سياسي يتبنى مشروعًا يهدف إلى تطهير المجتمع من الفساد ومقاومة الحكم التركي–المصري الذي اعتبره غريبًا عن تقاليد السودانيين وظالمًا لهم.

اعتمدت دعوة المهدي على أسس دينية وفكرية واضحة، إذ ارتكزت على فكرة التجديد الإسلامي في زمن الفتن، والتأكيد على أنه المهدي المنتظر الذي بشر به النبي محمد ﷺ لإقامة العدل ونشر الحق. دعا إلى العودة الصافية إلى الكتاب والسنة، ومحاربة البدع والانحرافات التي شابت الممارسات الدينية، كما رفع شعار مقاومة "الأتراك" وحلفائهم باعتبارهم أداة استعمارية. ووجدت هذه الدعوة صدى واسعًا في أوساط المجتمع السوداني، حيث التقت مع حالة التذمر الشعبي والرغبة في الخلاص من الظلم. كما أكسبتها لغة الخطاب الديني المشحون بالعاطفة الدينية والرمزية المهدوية قوة جذب جعلت أعدادًا كبيرة من السودانيين، من فلاحين ورعاة وطرق صوفية، يلتفون حول محمد أحمد المهدي ويؤمنون بشرعيته.

لقد جمع المهدي في شخصيته بين الروحانية الصوفية، والقدرة على القيادة، والجرأة في مواجهة السلطة القائمة، مما جعله رمزًا لمشروع ثوري متكامل استطاع أن يحرك قطاعات واسعة من المجتمع السوداني نحو التغيير، ويضع اللبنات الأولى لدولة جديدة قائمة على الأساس الديني والفكر الإصلاحي.

ثالثا: الانتصارات العسكرية وبناء الدولة

بعد إعلان محمد أحمد دعوته المهدية عام 1881، بدأت المواجهات العسكرية المباشرة بين قواته التي عُرفت بالأنصار وبين الجيش التركي–المصري المدعوم من الضباط الأوروبيين. كانت البداية مع بعض المعارك الصغيرة التي أظهرت فيها الحركة المهدية قدرة عالية على تعبئة الجماهير وتوظيف الحماسة الدينية في القتال. ومع تزايد أعداد الأنصار واتساع رقعة نفوذهم، قررت الإدارة التركية–المصرية توجيه حملة عسكرية كبرى للقضاء عليهم.

في عام 1883 وقعت معركة شيكان الشهيرة، حيث أُرسلت حملة ضخمة بقيادة الجنرال البريطاني وليام هكس (هكس باشا) مدعومة بالأسلحة الحديثة والجنود المدربين. إلا أن المهدي استطاع أن يوظف تكتيكات عسكرية غير تقليدية، مستفيدًا من معرفته بتضاريس المنطقة وحماسة أنصاره الذين كانوا يقاتلون بدافع ديني. انتهت المعركة بانتصار ساحق للمهدية ومقتل هكس ومعظم جيشه، وهو ما اعتُبر نقطة تحول حاسمة أكسبت الحركة قوة معنوية كبيرة وشرعية سياسية، ورسخت في أذهان السودانيين أن المهدية مشروع قادر على مواجهة القوى الأجنبية.

وبعد عامين من هذا النصر، تمكنت قوات المهدي من حصار الخرطوم عاصمة الحكم التركي–المصري. استمر الحصار عدة أشهر وسط مقاومة شرسة قادها الحاكم البريطاني–المصري

الجنرال تشارلز غوردون، الذي أصبح رمزًا لتحدي النفوذ الغربي. وفي يناير 1885 تمكن الأنصار من اقتحام المدينة، وسقطت الخرطوم بيدهم وقُتل غوردون، وهو حدث دوّى صداه في العالم وأثار صدمة كبيرة في الأوساط الأوروبية. مثّل سقوط الخرطوم ذروة الانتصارات المهدية، حيث أسقط الحكم التركي–المصري فعليًا وأكد قدرة الحركة على تأسيس كيان سياسي مستقل.

عقب هذا الانتصار، أعلن محمد أحمد قيام الدولة المهدية واتخذ من أم درمان عاصمة لها، لما تتمتع به من موقع استراتيجي على الضفة الغربية للنيل مقابل الخرطوم. في أم درمان شُيدت مؤسسات الحكم، وأقيمت مقار إدارية ودينية، لتصبح مركزًا جديدًا للسلطة السودانية. كان الهدف من هذه الخطوة هو بناء عاصمة تعكس استقلالية الدولة الجديدة وتبتعد عن الإرث الإداري للحكم التركي–المصري.

أما على صعيد نظام الحكم والإدارة، فقد بُنيت الدولة المهدية على أسس دينية بحتة، إذ اعتبر المهدي نفسه قائدًا دينيًا وسياسيًا يجمع بين السلطتين الروحية والدنيوية. وضع نظامًا قضائيًا مستمدًا من الشريعة الإسلامية، وألغى الكثير من القوانين والضرائب التي كانت مفروضة في عهد الأتراك. كما نظم الدولة عبر شبكة من الخلفاء والعمال الذين عُينوا لإدارة الأقاليم، وكانوا يرتبطون مباشرة بالمهدي. اعتمد النظام الإداري على المركزية الشديدة، حيث صدرت الأوامر من القيادة العليا في أم درمان إلى مختلف الأقاليم. كما حددت الدولة واجبات الأفراد تجاه الجهاد والدعوة ونصرة المهدية، وأُقيم نظام اقتصادي قائم على الزكاة والغنائم وتنظيم التجارة.

بفضل هذه الانتصارات العسكرية والتنظيمات الإدارية، تمكنت المهدية من أن تتحول من مجرد حركة دينية إصلاحية إلى دولة قائمة بذاتها حكمت معظم أراضي السودان لفترة امتدت من 1885 حتى 1898، قبل أن تواجه تحديات داخلية وضغوطًا خارجية انتهت بانهيارها.

رابعا: التحديات والانهيار في الدولة المهدية:

بعد أن تمكنت المهدية من بناء دولتها في أم درمان عقب سقوط الخرطوم سنة 1885، سرعان ما بدأت تواجه جملة من التحديات القاسية التي قوضت استقرارها وأدت في النهاية إلى سقوطها.

أولى هذه التحديات تمثلت في الأزمات الاقتصادية التي عصفت بالبلاد. فقد أدت سنوات الحرب المتواصلة إلى إنهاك الزراعة والتجارة، فيما تسبب فرض الجهاد المستمر في تقليص الأيدي العاملة المنتجة، مما انعكس سلبًا على الإنتاج الزراعي والحيواني. أضيف إلى ذلك الوباء والمجاعات

التي اجتاحت السودان، خاصة في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، فأهلكت أعدادًا كبيرة من السكان، وأضعفت قدرة الدولة على الاستمرار. لم ينجح نظام الجباية والزكاة والغنائم الذي اعتمدت عليه المهدية في تعويض هذا التدهور، بل أدى في كثير من الأحيان إلى زيادة العبء على الأهالي، الأمر الذي خلق حالة من التململ الشعبي.

على المستوى السياسي والاجتماعي، واجهت الدولة صراعات داخلية وتنازعًا بين القيادات بعد وفاة المهدي عام 1885. فقد تولى خليفته عبد الله التعايشي السلطة، لكنه واجه معارضة من بعض الأنصار وقيادات القبائل التي لم ترَ فيه الامتداد الطبيعي لشرعية المهدي. تصاعدت التوترات بين أنصار الخليفة والتيارات الأخرى، واندلعت حركات تمرد في بعض الأقاليم، كان أبرزها في الشرق ودارفور. هذا التناحر الداخلي أضعف الجبهة الداخلية للمهدية، وحرمها من وحدة الصف التي كانت مصدر قوتها في سنواتها الأولى.

وفي الوقت نفسه، كانت القوى الاستعمارية تراقب الوضع عن كثب، وخاصة بريطانيا التي اعتبرت سقوط الخرطوم ومقتل غوردون إهانة لهيبتها. ومع تحسن الظروف الدولية وتزايد أهمية وادي النيل كخط استراتيجي، قررت بريطانيا بالتنسيق مع مصر إعادة غزو السودان. وهكذا شُكلت حملة كتشنر بقيادة الجنرال هربرت كتشنر في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر، وهي حملة ضخمة ومجهزة بأسلحة حديثة، خاصة المدافع الرشاشة (المكسيم) والسكك الحديدية التي سهلت تحرك القوات والإمدادات.

وجاءت المواجهة الحاسمة في معركة كرري (أم درمان) عام 1898. فقد احتشد جيش المهدية الذي قُدر بعشرات الآلاف من الأنصار في مواجهة قوات كتشنر المدعومة بالمدفعية والأسلحة النارية المتطورة. رغم شجاعة المقاتلين المهدويين وإقدامهم، إلا أن الفارق الكبير في التسليح والتنظيم كان حاسمًا. فقد حُصدت جموع الأنصار بالمدافع الرشاشة في ساعات قليلة، وسقط عشرات الآلاف من القتلى. شكلت هذه المعركة نهاية فعلية للدولة المهدية، إذ دخل كتشنر أم درمان بعد النصر، وأعلن إعادة سيطرة الحكم الثنائي البريطاني–المصري على السودان.

وبهذا الانهيار، انتهت تجربة المهدية التي استمرت أقل من عقدين، لكنها تركت أثرًا عميقًا في وجدان الشعب السوداني، حيث مثلت نموذجًا للمقاومة الوطنية والروح الدينية الثورية، كما شكلت أحد المنعطفات الكبرى في تاريخ السودان الحديث.

الخاتمة:

مثّلت الحركة المهدية في السودان ثورة دينية وسياسية كبرى انطلقت من رحم المعاناة تحت الحكم التركي–المصري، واستطاعت بقيادة محمد أحمد المهدي أن تحقق انتصارات بارزة أسقطت الخرطوم وأقامت دولة مستقلة. غير أن الأزمات الاقتصادية والصراعات الداخلية، إلى جانب التدخل البريطاني–المصري، عجّلت بانهيارها في معركة كرري عام 1898. ورغم قصر عمرها، تركت المهدية أثرًا عميقًا في التاريخ السوداني باعتبارها تجربة مقاومة شكلت وعيًا وطنيًا وإرثًا سياسيًا ودينيًا لا يزال حاضرًا حتى اليوم.

المصادر:

1. أبو سليم، محمد إبراهيم. الإمام المهدي: لوحة لثائر سوداني. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1981.
2. ضرار، عبد الله. المهدية في السودان: دراسة في مصادرها الأولية. الخرطوم: دار الجيل، 1985.
3. أبو شوك، أحمد إبراهيم. السودان: المهدية وما بعدها (1885–1898). القاهرة: مركز دراسات السودان المعاصر، 1992.
4. نعوم شقير. تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته. القاهرة: المطبعة الأميرية، 1903 (طبع حديث في بيروت: دار الفكر، 1998).
5. أبو سليم، محمد إبراهيم. الأنصار في السودان. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1999.
6. الطيب، محمد سعيد. المهدية: دراسة في الفكر والحركة. أم درمان: دار الصحافة، 2001.
7. العتباني، الصادق. تاريخ المهدية في السودان. القاهرة: دار النهضة العربية، 2003.
8. أبو شوك، أحمد إبراهيم. قراءات في تاريخ المهدية. الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2006.
9. ضرار، عبد الله. الحركة المهدية: الجذور الفكرية والتاريخية. الخرطوم: دار عزة للنشر، 2010.
10. فضل الله، علي. الثورة المهدية: أبعادها السياسية والاجتماعية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2015.